٢٦ إبراهيم الجواد أو أمير ـ المؤمنين ـ المنتظر

الإمام الشهيد إبراهيم الجواد ينتهى نسبه لأبيه إلى الإمام الحسن ابن الإمام على رضى الله عنهما، كما ينتهى نسبه لأمه إلى السيدة فاطمة النبوية بنت الإمام الحسين رضى الله عنهما ابن الإمام على كرَّم الله وجهه. وهكذا نجد أن نسبه ينتهى من ناحية الأب والأم إلى الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما.

كان من الكبار فى العلم والفقه، وكان فارساً لايُشق له غُبار، وكان يماثل جده لأمه الإمام الشهيد الحسين رضى الله عنه فى الشجاعة والإقدام، وكان طيب المعشر، حسن السيرة بين الناس، وكان يماثل فى ذلك جده لأبيه الإمام الحسن رضى الله عنه.

كان من قَدَر هذا الإمام أن يُطالب بالخلافة التى اغتصبها بنو أمية من العلويين. . ليستولى عليها من بعدهم بنو العباس.

وكان عليه أن يدعو إلى عودة الخلافة إلى العلويين بعد أن راح بسببها جده الحسين وخيرة أبناء آل البيت فى مأساة كربلاء.

وقد وجدت دعوة الإمام إبراهيم الجواد رضاً وارتياحاً من الكثيرين، إمَّا تكفيراً عن ذنب اقترفوه يوم أن انفضَّ الجمع من حول الإمام الحسين رضى الله عنه لتتكالب عليه السيوف الحراب حتى يسقط شهيداً، أو تخلصاً من ظلم واستبداد من جاء بعد الخلفاء الراشدين الأربعة من مُلوكٍ وأمراءِ بنى أمية (باستثناء عمر بن عبد العزيز). ومن جاء بعدهم من بنى العباس.

لذلك وجدت دعوة هذا الإمام تأييداً. . حتى قيل إن الناس وقتئذ مالوا إلى مبايعته، وخاصة أن الإمام أبا حنيفة أفتى الناس بالخروج معه ومع أخيه محمد فى الجهاد من أجل استرداد الخلافة المغتصبة من العلويين.

ويسجل الذهبى ذلك فى تاريخه قائلاً: «سار إبراهيم الجواد الذى ينتهى نسبه إلى الإمام على وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما من الحجاز، تاركاً أخاه محمداً فيها. . قاصداً البصرة، فدخلها سراً فى عشرة أنفس».

ولما بلغ المنصور ـ الخليفة العباسى وقتئذ ـ نبأ خروج الإمام إبراهيم الجواد. . تحوَّل فنزل الكوفة حتى يأمن غائلة أهلها، وألزمَ الناسَ بلبس السواد، وجعل يقتل ويحبس كل من اتهمه.

ومن ناحية أخرى يتهاون أمير البصرة فى أمر الإمام إبراهيم الجواد، مما تسبب عنه التفاف الكثيرين من أهلها حوله مؤيدين له.

وهنا قام المنصور بتجهز قوة قوامها خمسة آلاف مقاتل لحرب الإمام إبراهيم الجواد. وقامت بين الفريقين معارك دامية، قُتل فيها خلق كثيرٌ من أهل البصرة بالعراق، ونفى الإمام إبراهيم الجواد وعدد قليل من قواته وأتباعه مستبسلين، حتى أتاه نبأ مصرع أخيه محمد بالمدينة على أيدى العباسيين.

زادته محنة مقتل أخيه نوراً وناراً. . نور اليقين بعدالة قضيته، ونار العزيمة فى الذود عنها.

وفى الجانب الآخر جعل المنصور يكثف هجومه، معززاً قواته بقوات أخرى مشهود لها بالكفاءة القتالية، تولى قيادتها جميعاً داهية الحرب وقتئذ «عيسى بن موسى» للقضاء على الإمام إبراهيم الجواد وأتباعه ودعوته.

وهكذا أيقن المنصور أنه لا يقر له قرار، أو يهدأ له بال مادام هذا الإمام على وجه الحياة، حتى أنه لم يأو إلى فراشه خمسين ليلة، وكل ليلة يأتيه جديد يكدر حياته عن تأييد الناس للإمام إبراهيم الجواد ومبايعتهم له. خاصة بعد مقتل أخيه محمد بالمدينة على أيدى بنى العباس.

لدرجة أنه كان متوقعاً بين لحظة وأخرى أن يملك الإمام إبراهيم الجواد زمام الأمر، وتعود الخلافة إلى العلويين، لولا ما كان عليه إبراهيم الجواد من دين وخُلُق، فلو أنه هاجم الكوفة لظفر بها، وفى الوقت نفسه ظفر بالمنصور وخلافته، ولكنه تردد فى اتخاذ هذا القرار بوازع دينى حيث قال: «أخاف إن هاجمتها ـ يقصد الكوفة ـ أن يُستباح الصغير الكبير».

وهنا نرى هذا الإمام الجليل يغلب أوامر الإسلام وتعاليمه فى عدم قتل الأبرياء.. على كل مكسب حتى ولو كان الظفر بالخلافة الإسلامية.

فى هذه الأثناء استطاع جيش «عيسى بن موسى» الذى جهزه المنصور لمحاربة الإمام إبراهيم وأتباعه أن يحيط بجيش هذا الإمام على قِلَّته ويهاجمه هجمة رجل واحد، فتقع الهزيمة بأصحاب إبراهيم الجواد، حتى لايبقى معه إلا قلة من الرجال. ويشتد القتال، ويسقط الجنود واحداً إثْرَ الآخر تحت السيوف والحراب.. حتى إذا استقر سهم طائش فى حلق الإمام إبراهيم الجواد وهو على صهوة جواده، جاء أحد أتباعه ليعاونه على النزول من فوق ظهر الجواد وظَلَّ يردد وهو فى أنفاسه الأخيرة: وكان أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً.. أَرَدْنَا أمراً وأراد الله غيره».. وينتهى الأمر لصالح العباسيين.

ويتجمع أصحاب الإمام إبراهيم الجواد فى قلتهم يريدون حمله بعيداً عن حومه الوغى، حتى لا يمثلوا بجثته، كما فعلوا من قبل مع جده الإمام الحسين، يمنعهم «عيسى بن موسى» ومَنْ معه من العباسيين، حاملين عليهم حملة أخرى، من بعدها تفرق الجمع من حول الإمام الجريح.. ليبقى فى الميدان وحيداً، فتنزل جماعة من جيش عيسى بن موسى ويحتزون رأسه، ويبعثون به إلى المنصور.

وفى ذلك يذكر «المبرِّد» فى كتابه الكامل: أنه لما دخل الرأس على المنصور ورآه.. بكى حتى تساقطت دموعه على رأس الإمام الشهيد. وقال منتحباً، وكأنه يخاطب هذا الرأس: «أمَا والله إن كنت لهذا كارهاً، ولكنك ابتُليت بى، وابتُليت بك».

وهكذا يحدث لأحد العلويين من بنى عمومة بنى العباس نفس ما حدث لهم - من قبل - من بنى أمية حين قتلوا الحسين. . فالصراع واحد وإن تغيرات أسبابه وأطرافه.

أما كيف وصلت رأس الإمام إبراهيم الجواد لتستقر على النحو الذى هى عليه فى ضريحه المقام بمسجده فى المطرية بالقاهرة. ففى ذلك تتفق الكتابات الحديثة مع ما يحدثنا به «ابن طهيرة»، حيث يذكر ما خلاصته أنه فى عهد يزيد بن حاتم والى مصر من قِبَلِ الخليفة المنصور. ظهرت فى مصر دعوة لمبايعة العلويين بالخلافة الإسلامية فى الباطن. وكاد أمر العلويين يتم على هذا النحو، خصوصاً بعد أن بدأ الناس يتكلمون فى الظاهر بما كانوا يخفونه فى الباطن، رأى المنصور ووالية يزيد بن حاتم أن يضع حداً لهذا التأييد، فبعث برأس الإمام إبراهيم الجواد الذى كانوا يرشحونه للخلافة إلي مصر سنة خمس وأربعين ومائة. ونَصَبَهُ الوالى يزيد أمام الناس فى مسجد عمرو بن العاص أياماً، من بعدها أخذه أهالى القاهرة ودفنوه فى المكان المقام على مسجده وضريحه بالمطرية.

* * *